تفسير سورة المدثر

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝ ﴾

ثبت فى صحيح البخارى عن جابر أنه كان يقول : أول شىء نزل من القرآن: ﴿ يا أيها المدثر ﴾ . وخالفه الجمهور فذهبوا إلى ان أول القرآن نزولا قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾، كما سيأتى بيان ذلك هنالك . وروى البخارى عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿ يا أيها المدثر ﴾ . قلت : يقولون : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ ؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلتُ له مثل ما قلتَ لى ، فقال جابر : لا احدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراَء ، فلما قضيت جوارى هبطتُ فنُوديت فنظرت عن يمينى فلم ار شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم ار شيئاً ، ونظرت امامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم ار شيئاً. فرفعت راسى فرايت شيئاً،فاتيت خديجة فقلت : دثّرونى . وصبّوا على ماء باردا . قال: فدثّرونى وصبّوا على ماء باردا قال: فنزلت ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر. وربك فكبر﴾ »[1]. هكذا ساقه من هذا الوجه،وقد رواه مسلم عن أبى سلمة قال: أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى: « فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصرى قِبَلَ السماء، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض، فَجَئِثْتُ منه حتى هَوَيتُ إلى الارض،فجئت إلى أهلى ، فقلت : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر ﴾ إلى : ﴿ فاهجر ﴾ - قال أبو سلمة : والرجز: الأوثان ـ ثم حَمِىَ الوحىُ وتَتَابع » . هذا لفظ البخارى[2] . وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا ، لقوله : « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء » ، وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجه الجمع أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة ، كما روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « ثم فتر الوحى عنى فترة ، فبينا أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قِبَل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والارض، فَجُئِثت منه حتى هَوَيت إلى الارض ، فجئت إلى أهلى فقلت لهم : زملونى زملونى. فزملونى، فأنزل الله: ﴿ يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر . وثيابك فطهر. والرُّجز فاهجر ﴾.

(١) البخارى (٤٩٢٢) . (٢) البخارى (٤٩٢٦) .

ثم حمى الوحي وتتابع » . أخرجاه [١] .

فقوله : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي : شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس . وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالاول النبوة ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي: عظم. وقوله: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، عن ابن عباس: أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، قال: لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرَة . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي :

فَإِني بحمد الله لاَ ثَوبَ فَاجِر لبستُ ، ولا من غَدْرَة أتقَنّعُ

وقال ابن جريج عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : في كلام العرب : نَقِي الثياب . وقال الثوري ، عن رجل ، عن عطاء ، عن ابن عباس في هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الإثم . وكذا قال إبراهيم النخَعي .وقال مجاهد: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال: نفسك ، ليس ثيابه . وفي رواية عنه: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾: عملك فأصلح، وكذا قال أبو رَزِين . وقال قتادة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي : طهرها من المعاصي ، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يَفِ بعهد الله إنه لَمُدَنَس الثياب . وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب . وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يعني: لا تك ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب ، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية .وقال محمد بن سيرين :﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾أي: اغسلها بالماء.وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ، وأن يطهر ثيابه . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه .

وقوله: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَالرُّجْزَ ﴾ وهو الاصنام ، فاهجر .وكذا قال مجاهد ، وعكرمة، وقتادة : إنها الأوثان . وقال إبراهيم ، والضحاك : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أي : اترك المعصية . وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الاحزاب:١] . ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الاعراف:١٤٢] .

وقوله: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها . وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وغيرهم .وقال الحسن البصري : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره . وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير .وقال خُصَيْف ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن في كلام العرب : تضعف.وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها ، تأخذ عليه عوضا من الدنيا . فهذه أربعة أقوال، والاظهر القول الأول، والله أعلم .

وقوله: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي : اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عز وجل ،قاله مجاهد . وقال إبراهيم النخعي : اصبر على عطيتك لله تعالى.

وقوله: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن ، وقتادة: وغيرهم ﴿ النَّاقُورِ ﴾: الصور. قال مجاهد: وهو كهيئة القرن . وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾، فقال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب

(١) المسند (٣/ ٣٢٥) والبخاري (٤٩٢٦) ومسلم (١٦١/ ٢٥٦) .

القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» .وهكذا رواه الإمام أحمد [١].

وقوله : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي : شديد ، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي : غير سهل عليهم. كما قال تعالى:﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر:٨] . وقد روينا عن زرارة بن أوفى ـ قاضي البصرة: أنه صلى بهم الصبح ، فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله :﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ : شَهِقَ شهقة ، ثم خر ميتا ، رحمه الله .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾

يقول تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفرا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر. وقد عدد الله عليه نعَمه حيث قال: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله، ﴿ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أى : واسعا كثيراً . قيل : ألف دينار . وقيل : مائة ألف دينار . وقيل: أرضا يستغلها . وقيل غير ذلك . وجعل له ﴿ بَنِينَ شُهُودًا ﴾ قال مجاهد : لا يغيبون ، أى:حضورا عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل مَواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتَملّى بهم.وكانوا ـ فيما ذكره السدى ، وأبو مالك ،وعاصم بن عمر بن قتادة ـ ثلاثة عشر. وقال ابن عباس، ومجاهد : كانوا عشرة. وهذا أبلغ فى النعمة وهو إقامتهم عنده.﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى : مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ،﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى : معاندا ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم . قال الله :﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ قال ابن عباس : صعوداً : صخرة فى جهنم عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه . وقال السدى : صعودا : صخرة ملساء فى جهنم ، يكلف أن يصعدها .وقال مجاهد : ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ أى : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابا لا راحة فيه . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أى : إنما أرهقناه صعودا ، أى : قربناه من العذاب الشاق ؛ لبعده عن الإيمان ، لأنه فكر وقدر ، أى : تَرَوَّى ماذا يقول فى القرآن حين سُئل عن القرآن ، ففكر ماذا يختلق من المقال ، ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أى : تروى ، ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاء عليه ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أى : أعاد النظرة والتروى ،﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى: قبض بين عينيه وقطب ، ﴿ وَبَسَرَ﴾ أى: كلح وكره . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أى : صُرِف عن الحق ،ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن، ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أى : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٧٣) من آل عمران .

﴿ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أى : ليس بكلام الله .

وهذا المذكور فى هذا السياق هو : الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد رؤساء قريش ـ لعنه الله ـ وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى ، عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر بن أبى قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفرُ من قريش ائتمروا فقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبُوَنَّ قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدَقة؟ فقال : ألستُ أكثرهم مالا وولدا . فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتى ؟! فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر . فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ . وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة ،وإن عليه لطلاوة ،وإنه ليعلو وما يُعلَى ،وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ : قبض ما بين عينيه وكلح .

وروى ابن جرير: عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال : أى عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعَرض لما قبله . قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا. قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له . قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من ذلك . والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه. فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره .فنزلت : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ،حتى بلغ :﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [1] .

وقد ذكر ابن إسحاق وغير واحد نحوا من هذا . وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه ، قبل أن يقدم عليهم وفودُ العرب للحج ليصدّوهُم عنه ، فقال قائلون : شاعر. وقال آخرون : ساحر . وقال آخرون : كاهن . وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٤٨] ، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، قال الله عز وجل: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أى : سأغمره فيها من جميع جهاته . ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ ؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ أى : تأكل لحومهم وعروقهم وعَصَبَهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحيون .

وقوله : ﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد : للجلد ، وقال أبو رَزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها .وقال قتادة: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ أى: حراقة للجلد .

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٩/٩٨) .

وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أى : من مُقَدَّمى الزبانية ، عظيم خَلْقهم ، غليظ خُلُقهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أى: خزَّانها ، ﴿ إِلاَّ مَلاَئِكَةً ﴾ أى: زبانية غلاظا شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكروا عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟ فقال الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً ﴾ أى : شديدى الخَلْق لا يقاومون ولا يغالبون . وقد قيل : إن أبا الأشدين [1] ـ واسمه : كَلَدَة بن أسيد بن خلف ـ قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر ، إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلى :وهو الذى دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال : إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى ﷺ مرارا، فلم يؤمن . قال: وقد نَسَب ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب . قلت : ولا منافاة بين ما ذكراه ، والله أعلم. ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعةَ عشرَ اختباراً منَّا للناس، ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله . ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ أى : إلى إيمانهم. أى : بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ، ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أى : من المنافقين ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ ؟ أى : يقولون : ما الحكمة فى ذكر هذا هاهنا ؟ قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ أى : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة.

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين . ومن شايعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها، وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ . وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فإذا هو

(١) فى المطبوعة: « أبا الأسدين » بالسين المهملة ،وهو خطأ ،والمثبت من المخطوطة والطبرى والدر المنثور عند تفسيرهما لهذه الآية .

يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم » (١) .

وقوله: ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي: النار التي وصفت، ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾. ثم قال: ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ. وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أي: ولي، ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أي: أشرق ، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أي: العظائم ، يعني: النار ، قاله ابن عباس، ومجاهد ،وقتادة ،والضحاك ، وغير واحد من السلف:- ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ . لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق ، أو يتأخر عنها ويولي ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً أن: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أي: معتقلة بعملها يوم القيامة ، قاله ابن عباس وغيره ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ، فإنهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ أي: ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ، ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أي: نتكلم فيما لا نعلم .وقال قتادة: كلما غوى غاو غوينا معه، ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني: الموت. كقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] ، وقال رسول الله ﷺ: « أما هو ـ يعني عثمان بن مظعون ـ فقد جاءه اليقين من ربه » (٢) .

قال الله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أي: من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع ؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة ، خالداً فيها . ثم قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين، ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أي: كأنهم في نفارهم عن الحق ،وإعراضهم عنه حُمُرٌ من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ،قاله أبو هريرة ، وابن عباس ـ في رواية عنه ـ وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن. أو :رام ، وهو رواية عن ابن عباس ، وهو قول الجمهور .وقال ابن عباس : الأسد، بالعربية، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالنبطية : أويا .

---

(١) جزء من حديث طويل . رواه البخاري (٧٥١٧) ومسلم (٢٥٩/١٦٢) . وانظر أحاديث الإسراء عند أول تفسير سورة الإسراء .

(٢) البخاري (١٢٤٣) .

وقوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ أى : بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبى . قاله مجاهد وغيره ، كقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام:١٢٤] ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل . فقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ،وتكذيبهم بوقوعها.

ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : حقاً إن القرآن تذكرة ، ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، كقوله: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠] . وقوله: ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أى: هو أهل أن يُخاف منه ، وهو أهل أن يَغفر ذنب من تاب إليه وأناب . قاله قتادة .